تجربة التعريب في سوريا

الدكتور توفيق المنجد

رزحت الديار الشامية تحت نير الحكم التركي حقبة طويلة من الدهر امتدت نحو خمسمائة سنة ونيف ، عانى اهل البلاد خلالها اشد انواع الظلم والاستغلال والاستعباد ، واشتدت وطأة هذا الحكم في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حينما عمد العثمانيون الى محاولة « تتريك » الشعب العربي في سوريا بعد ان صبغوا الادارة المحلية بطابعهم وملأوا دواوينها بموظفيهم وليصلوا الى غايتهم هذه انشاوا في المدن الكبيرة بعض المدارس الرشدية « الابتدائية » والاعدادية والسلطانية « الثانوية » . وجعلوا التعليم كله فيها باللغة التركية ولم يتركوا للغة العربية ودروس الدين الا النزر القليل من الساعات ، يدرسها معلمون اتراك باللغة التركية . ولم تفلت المدارس الاهلية العربية من ايديهم فعمدوا الى فرض تعليم اللغة التركية فيها بنطاق واسع ، ولاحقوها بالتفتيش المستمر وعقوبة الاغلاق للتخلص منها نهائيا ولكن مقومات القومية العربية بقيت رغم ذلك وطيدة الاركان ، ومنها انبعثت روح المقاومة والكفاح والنضال .

وعند ما انهزم الاتراك في نهاية الحرب العالمية الاولى ، وولى موظفوهم الادبار واجهت البلاد بين المشاكل المتعددة مشكلة اعادة تعريب الادارة والتعليم. فانشىء المجمع العلمي العربي بدمشق من لفيف من كبار اللغويين والادباء والعلماء ، وكان من اولى مهماته احياء التراث العربي القديم ووضع المصطلحات الادارية والعلمية والفنية . وقام المجمع بمهمة هذه خير قيام فعمل على ايجاد المصطلحات الادارية والفكرية التي مكنت الحكومة من تعريب جيشها الفتي ودواوين مصالحها بسرعة كبيرة ، ثم انصرف المجمع لايجاد المصطلحات العلمية والفنية التي تتناول مرافق الحياة المختلفة .

وبجانب هذه الجهود الرسمية ، قامت جهود فردية من قبل فريق من المعلمين والمدرسين للترجمة والتاليف ووضع المصطلحات المناسبة لكل مادة من مواد العلوم التي تدرس في مرحلتي التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي . فتم بذلك تعريب التعليم دفعة واحدة وخلال مدة قصيرة وكانما تم بعصى سحرية .

وفي هذه الفترة بالذات احدثت في دمشق جامعة مؤلفة من كليتين : احداهما للطب والصيدلة وطب الاسنان والاخرى للحقوق لمجابهة حاجة البلاد للاطباء والصيادلة والقضاة والمحامين . وتضافرت جهود أساتذة هاتين الكليتين مع جهود اعضاء المجمع العلمي العربي في وضع المصطلحات الطبية والحقوقية بحيث سار التعليم الجامعي منذ السنة الاولى من تأسيسه باللغة العربية. واستمرت الترجمة والتاليف ووضع المصطلحات حتى نهاية المرحلة . وقد بلغ عدد الكتب التي الفها أساتذة الجامعة واخرجتها مطبعتها مائة وخمسين مصنفا في مختلف العلوم الطبية والحقوقية عدا المجلات الطبية والحقوقية التي اصدرتها الجامعة .

وحاول الفرنسيون بعد احتلالهم لسوريا ان يحلوا لغتهم محل اللغة العربية في التعليم والتدريس وان يلغوا التعليم الجامعي برمته ، ولكن محاولتهم لاقت مقاومة عنيفة وفشلت فشلا ذريعا فاكتفوا باحتلال لغتهم مكان اللغة الانجليزية التي كانت تدرس كلغة في المدارس وباقامة العقبات في نمو الجامعة وتطويرها .

وما لبث أن جلا الفرنسيون عن البلاد بفضل كفاح اهلها المرير وبدأ عهد الاستقلال باصلاح شامل لمناهج التعليم فاعيدت اللغة الانجليزية الى جانب اللغة الفرنسية في التعليم الثانوي ، واحدثت في جامعة دمشق دفعة واحدة اربع كليات جديدة انضمت الى كليتي الطب والحقوق وهي كليات الآداب والعلوم والتربية والهندسة، ثم اضيفت اليها كليتان اخريان هما التجارة والشريعة .

وبهذا نشطت الحركة العلمية في البلاد وتالفت فيها جمعيات علمية متعددة انتظمت كلها في اتحاد عام وازداد عدد الكتب المؤلفة او المترجمة في شتى ميادين العلوم والفنون .

هذه صورة سريعة لتجربة تعريب التعليم التي مرت بها سوريا خلال الاربعين سنة الفائتة عمل فيها جيل بعد آخر لم يستهول الجيل الاول منها صعوبتها بل أقدم بعزم على اقتحامها ومهدت الاجيال الاخرى الطريق امامنا لتسير فيه دوما بخطوات واسعة .

وفرنسية وأمريكية وايطالية ويونانية والمانية .... الخ وكل مدرسة من هذه المدارس كانت في الواقع نقطة ارتكاز لاستعمار فكرى ثقافى خطير ، وكان وجود هذه التشكيلة العجيبة من المدارس عاملا من اكبر عوامل البلبلة وزعزعة العقيدة وانفصام عرى الوحدة في الفكر وفي الاسرة وفي المجتمع وفي الاهداف ، وكان يحدث ان يكون فى الاسرة المصرية الواحدة ابن تعلم فى مدرسة انجليزية وابن ثان تعلم في مدرسة ايطالية وبنت تثقفت في مدرسة فرنسية وبنت اخرى تثقفت في مدرسة المانية ، وكل من هؤلاء كان يكفر - بحكم تربيته وثقافته - بقوميته العربية وبالحضارة العربية ، ولا يؤمن الا بحضارة الشعب الذى تثقف بثقافته ، وذلك ان هذه المدارس كانت تدرس للتلاميذ المصريين تاريخ وجغرافية انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا ... الخ بالتفصيل اما تاريخ مصر وجغرافيتها واما تاريخ الوطن العربي وجغرافيته وحضارته فكم مهمل ، لا يدرس التلميذ ولا تدرس التلميذة عنها حرفا واحدا ، بل أن مدارس الارساليات الدينية كانت تدرس للتلاميذ المسلمين الدين المسيحي .

وادركت مصر ابان نهضتها الوطنية خطورة هذا الوضع ، فبدأت بان فرضت على هذه المدارس تدريس تاريخ الوطن العربي وجغرافيته ، وتدريس الدين الاسلامي للتلاميذ المسلمين وبلغت الوقاحة من بعض هذه المدارس أنها عارضت أول الامر ثم قبلت على مضض وبدأت تدرس هذا كله باللغات الاجنبية وبشكل مشوه مغرض ، فعادت الدولة وأمرت بان تدرس هذه المواد جميعا باللغة العربية .

ثم خطت الدولة الخطوة الطبيعية الكبرى بعد تأميم القناة ، وأصدرت اوامرها بتأميم المدارس والمعاهد الاجنبية جميعا بحيث يصبح مديروها والمشرفون على توجيه سياستها التعليمية من المصريين ، وابقت نظام التعليم - فيما عدا العلوم الانسانية من دين وتاريخ وجغرافية - باللغات الاروبية لان الدولة تؤمن بضرورة تعلم اكبر عدد ممكن من المواطنين هذه اللغات ، فهي عند ما فكرت في تأميم هذه المعاهد لم تكن تقصد الى محاربة العلم أو تعلم اللغات الاروبية ، وانما كانت تقصد ان تقضى على عوامل الانفصام في التكوين الثقافي للامة العربية ، وعلى اهداف الاستعمار الثقافي .

بهذه الخطوات جميعا تم تعريب المجتمع والثقافة والاقتصاد في الاقليم المصري من الجمهورية العربية المتحدة ، وعلى هذا النهج كانت تسير سوريا ، بل لعل هذا البلد كان أسبق من مصر في بعض خطوات التعريب ، فقد بدأت جامعة دمشق تدرس علوم الطب المختلفة باللغة العربية منذ سنوات .

على هذا الدرب سار المشرق العربي في تؤدة وثقة ، وقد قابلته صعاب كثيرة ولكنه كان يتغلب عليها دائما بالصبر والايمان وتحديد الاهداف .